لمستضعفي الإنسان، ولأقل تقدير هو يعبد نفسه وهواه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[١].

إنه ليست لله تعالى حظوة في عباداتنا، فنحن الذين نحظو بعبادته، حظوة معنوية لأنها اتصال معرفي باللّانهاية في الكمال، وأخرى حيويّة أخرى، أنه يدلنا بها إلى التقوى ويردعنا عن الطغوى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

والناس بين من يعبد الله وحده على درجاتهم، أم يعبده مشركاً في عبادته، أم مشركاً به معبوداً سواه، أم لا يعبد إلّا سواه، بديل ألّا يعبد إلّا إياه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤] فضلاً عن تخصيص العبادة لغير الله.!

إن العبودية العادلة الحكيمة هي مفرق الطريق بين التحرر المطلق عن كل عبودية، وبين العبودية لغير الله من طواغيت، وأوثان وأصنام ونظم وأوهام وعادات وأحلام، فالناس بين عابدين لغير الله، ومدعين التحلل عن كل عبادة وعبودية حتى الله، مفرطين فيها أو مفرِّطين عنها، رغم استحالة التحلّل عن أية عبادة وعبودية، فإنهم يعبدون شهواتهم ومشتهيات غيرهم من طواغيت ثم يدعون التحلل عن كل عبودية ولهم منها أبطلها وأحمقها!.

فإذ يعبد الإنسان ربه الخالق له المدبر أمره فهذه مفخرة له إذ ترفع من كيانه، وحين يعبد أضرابه أو من دونه فقد حطّ من كيانه كإنسان، وردّ إلى أسفل سافلين.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦ - ٥٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٣.

ثم و﴿نَعْبُدُ﴾ قد تكون من العبودة كما هي من العبادة، فمن العبودة الرضى بلا خصومة، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شبهة، والشهود بلا غيبة، والإقبال بلا رجعة، والإيصال بلا قطيعة.

ومن العبادة الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غيبة، والصدقة بلا منة، والحج بلا إراءَة، والغزو بلا سمعة، والذكر بلا ملالة، وسائر العبادات بلا أية رئاء وسمعة وآفة.

فـ﴿نَعْبُدُ﴾ تشمل بإطلاق التعبير كلا العبادة والعبودة كما كلٌّ منهما درجات وفي التخلف عنهما دركات.

وهنا في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتقالة من غياب الحمد إلى حضور العبادة والاستعانة، حيث المعرفة البدائية وهي شرط العبادة، هي غائبة بطبيعة الحال، ومن ثم إلى حضور المعبود المعروف بما عرّف نفسه وتعرّفنا إليه في خطوات سابقة سابغة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ - إلى - مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

أنت قبل صلاتك منشغل عن الله بمشاغل الحياة وشواغلها، فلما تكبّر وتعني به أنه أكبر من أن يوصف، تأخذ في التغافل عما سوى الله والانشغال بالله، ولكي تتهيّأُ لحضوره في معراج الصلاة تُقدِّم ما تَقدَّم على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾ وحين تكمّل أصول المعرفة والدين بالبسملة - إلى - مالك يوم الدين، هنا يسمح لك أن تخاطب صاحب المعراج بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فمن قبل كنت في غياب هو مطلق الحضور، وأنت الآن في الحضور المطلق.

فـ«اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرق لكافة الحجب ظلمانية

ونورانية، وهو مجال فاسح لمقام التدلّي في «أو أدنى» بعد ما «دنى» فالدنو المعرفي العبودي كقاب قوسين، يعني أن ليس بينه وبين الله أحد، ثم التدلي هو أن ينمحي العابد عن نفسه كما محّى ما سواه فلا يبقى إلّا حجاب الذات المقدسة وهو لزام الألوهية: بيني وبينك إني ينازعني - فارفع بلطفك إني من البين.

الله تبارك وتعالى حاضر لدى كل كائن، وناظر إليه رقيب عليه، وهو أقرب منه إليه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1] قرباً علمياً وقيومياً، لا ذاتياً أو زمانياً ومكانياً فإنها بُعدٌ في ساحة الألوهية، ومسٌ من كرامة الربوبية:

فلتكن في حاضر خاطرك، في علمك وعملك، في سرِّك وعلانيتك، في جوارحك وجوانحك، حاضراً لديه، أقرب منك إلى نفسك فضلاً عما سواك انمحاءً لنفسك لكمال الحضور، فانعدم هنا عن كافة شخصياتك وتعلقاتك أمام ربك حتى تنوجد متعلقاً بل وتعلقاً بربك متدلياً به.

أم تحضر بحضرته كما أنت حاضر لنفسك، أم - لأقل تقدير - كما أنت حاضر عند عزيز من أعزتك وأنت تراه، أم وأدنى منه أنه يراك، آه يا ويلنا ونحن بعيدون في معراجنا عن هذه الأربع، بل نجد كل ضالة سوى الله في صلاتنا! - أفنحن أضعف من نساء في المدينة بالنسبة لحضرة يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[2] ويوسف عبد من عبيد الله، فهن يتناسين أنفسهن فيقطعن أيديهن من جمال الحضور ونحن نتثاقل عن معراج الصلاة لحدّ النفور، فأين تفرون؟!

فليكن المصلي في معراجه حضوراً مطلقاً لدى ربّه دون غياب، فإن إليه الإياب وعليه الحساب وهو رب الأرباب.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣١.

تتقدم ﴿إِيَّاكَ﴾ هنا على «نعبد ونستعين» تدليلاً على حصر العبادة في الله ولله وحصر الاستعانة في الله: نعبدك أنت لا سواك، ونستعينك أنت لا سواك، تعبيراً عبيراً عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١].

تتقدم، لأن الله أحق في التقديم عليك وعلى عبادتك بكلّ موازين التقديم فمن أنت حتى تتقدم على ربك وإن في حضرة العبودية، وما هي عبادتك حتى تتقدم على المعبود في حضرته؟!

و﴿نَعْبُدُ. . . و. نَسْتَعِينُ﴾ جمعاً ليس جمع التعظيم للمفرد حيث المقام مقام التطامن والتذلل، فإبراز نفسك كفرد زائدٌ أمام ربك فضلاً عن جمعك.

وإنما يعني أموراً عدة بين راجحة ومفروضة، وكلها مفروضة في شرعة المعرفة.

فلكي لا تكذب في صلاتك ادعاء لحصر عبادتك في الله، تدمج نفسك في جموع العابدين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، من السابقين والمقربين وأصحاب اليمين، حتى تصدق دعواك في حصر العبادة، فإن المخلصين صادقون في حصرهم بأسرهم، فأنا - إذاً - قائل عنهم، وناقل منهم وإن لم أكن بنفسي أهلاً لتلك الدعوى، فلعلي أسير بسيرتهم فأكون معهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٢].

فإذا أنت تقبل حق العبادة أيها الرب الجليل، فاقبل مني أنا الذليل البائس الهزيل، تلك العبادة الخليطة بعبادات المخلصين.

ثم دمجاً لنفسي في كلِّ العالمين ممن يعبده ويسجد له طوعاً أو كرهاً

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية ٦٩.

فـ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[١] والكون محراب فسيح تعبد فيه الكائنات ربها بلسان فصيح وغير فصيح.

ولأن الصلاة جماعة أحرى أم هي مفروضة كأصلها فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي حكاية الحال الحاضرة والمقال لجموع المصلين، ومعنا ملائكة الله إن كنا في صلاتنا فاردين، ومعنا سائر الكون على أية حال.

وحتى إن كنا في حصر العبادة لله صادقين، علينا أن نخفي أنفسنا في جموع العابدين تحرزاً عن الإنّية والظهور، وإعفاءً لأثر الشخوص والغرور، فلا أنا لائق للإشخاص والشخوص، ولا عبادتي تليق بحضرة المعبود، إذاً فـ«نعبد ونستعين واهدنا» في مثلث من انمحاء الشخصية أمام حضرة المعبود.

إن العبودية المطلقة تقتضي الطاعة المطلقة وبينهما عموم مطلق، فكل عبودية طاعة وليست كل طاعة عبودية اللهم إلّا مطلق العبودية الجامعة مع الشرك خفياً وجلياً.

ولماذا تنحصر العبادة بأسرها في الله؟ لأنه ﴿ٱللَّهِ - ٱلرَّحْمَٰنِ - ٱلرَّحِيمِ - رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ - مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وكلٌّ من هذه برهان تام لا مردّ له على ضرورة الانحصار.

فهو ﴿ٱللَّهِ﴾ في مثلث الزمان وقبله وبعده، سرمدياً ما له من فواق ولا رفاق الكمال المطلق الصادر منه كل كامل وكمال ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]؟ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[٣]؟!

وهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لا سواه، قبل أن يخلقك وبعد خلقك، لا رحمان إلّا إياه، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[٤]؟!.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٨٦.

وهو ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمن يستحق خاصة الرحمات لا سواه.

وهو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا ربّ سواه خلقاً ولا تدبيراً، فمن ذا نعبد إلّا إياه؟

وهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ليس إلّا إيّاه فكيف نعبد سواه، وإليه الإياب وعليه الحساب؟

فإن كنت تعبد ما تعبد حباً للكمال المطلق فهو الله فلا تعبد - إذاً - إلّا إياه.

وإن كنت تعبد استدراراً للرحمة أم إدراراً فالرحمة المدرار خاصة بالله فلا تعبد إلّا إياه، شكراً واستكمالاً به، واحتراماً لديه ما أنت المحتاج إليه دونه.

وإن كنت تعبد لمكان الربوبية فلا تعبد إلّا إياه فإنه - فقط - رب العالمين لا سواه:

وإن كنت تعبد طمعاً في الثواب أو خوفاً من العقاب فلا تعبد إلّا إياه فإنه - فقط - ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا سواه:

فمثلث: العبادة الحرة وطلب الثواب وخوف العقاب، منحصر في الله منحسر عن سواه، فكيف - إذاً - تعبد سواه وقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]؟!

ثم الواجب في شرعة التوحيد عبادة الذات «الله» حضوراً وإدراكاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب» عبادة من لا يحضره فلا يعرفه اللّهم إلّا بما أنعم، فلولا النعمة لم تكن عبادة! و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنافي الغياب فالله تعالى حاضر لك وأقرب إليك

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

منك، فلتكن حاضراً لديه علماً به وإدراكاً دون إحاطة، فلو كانت عبادتك بالصفة الفعلية فهي إحالة على غائب، وكثير هؤلاء الذين يعبدون الغائب: «ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف» وهي الصفة الفعلية دون الذاتية فإنها عين الذات، فعبادة الذات بصفة الفعل، أم بصفة الذات اعتباراً لها زائدة على الذات، إنها ناحية عن خالص التوحيد إلى خالص الشرك أم شائبه، حيث الثانية شرك في الذات وشرك في العبادة، أن تعبد الذات بصفات الذات كأنها زائدة على الذات، والأولى شرك في العبادة أن تعبده لأنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ - رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ - مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنها عبادة التجار والعبيد دون الأحرار، حيث يعبدون الله لأنه الله، ومهما صحت الثلاث وقبلت، إلّا في شرك الذات - فالعبادة الصحيحة هي عبادة الذات سواء كانت للذات فقط، أم للذات والصفات تعليلاً لعبادة الذات، وأما أن يعبد الذات والصفات ذاتية أو فعلية أو يعبد الصفات كما هيه، أو يعبد الصفات تفريعاً عليها الذات، فكل ذلك إبطال للتوحيد فذلك بين إشراك وإلحاد!.

«ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير»[1] حيث يجعل الصفات أصلاً يفرّع عليها الذات، ففي عبادتهما هكذا مع بعض شرك أنحس من التسوية، وفي عبادة الصفات أصالة بتفريع الذات انزلاق إلى إلحاد، وفي عبادة الذات بأصالة الصفات، أن يعبده هو لهذه الصفات، تحلّل عن عبادة الأحرار إلى العبيد والتجار ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[2].

فالعبادة درجات: ١ - خوفاً من عذاب الله وهي عبادة العبيد وكثير ما

(١) يرويه إخواننا عن الإمام الصادق عليه السلام وبين الأقواس بيانات منا.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

هم و٢ - طمعاً في ثواب الله وهي عبادة الأجراء وهم أقل منهم[١]. ٣ - أن تعبد الله لأنه الله وهم أقل قليل وكما عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[٢].

وهذه المراتب مطوية في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في ظلال ما قبلها، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك الله، فأنت أهل أن تعبد «لا نريد منك غيرك، لا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك»[٣].

وإياك نعبد لأنك «الرحمن - الرحيم - رب العالمين» طمعاً في رحمتك وربوبيتك: وإياك نعبد لأنك ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ طمعاً في ثوابك أو خوفاً من نارك وهذا أضعف العبادة.

وهذه الدرجات الثلاث كلٌّ منها درجات كما أن عبادة غير الله دركات.

وكما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تتبنّى هذه الخمس، كذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه كمال الحمد.

وكما أن عبادة التأليه تخصه، كذلك عبادة الطاعة، وعبادة الأفعال والأقوال فالقول: لولا الله وفلان لما نجحت إشراك في القول، وسجدة الاحترام وركوعه لغير الله إشراك في فعل الاحترام، والطاعة المطلقة لغير الله إشراك في طاعة الله، وإن كان ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤] ولكنها طاعة لله دون سواه.

---

(١) الكافي محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العباد ثلاثة قوم عبدوا الله عزوجل خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله حباً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة.

(٢) مرآة العقول للمجلسي من باب النية ج ٢ ص ١٠١.

(٣) تحف العقول عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.

ولماذا تتقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ والاستعانة لزام العبادة، حيث الموكول إلى نفسه على توفّر العراقيل بينه وبين ربه ليس ليعبد ربه؟ علّه حثٌّ لاستجاشة الطاقات وتكريس الإمكانيات لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم إكمالها بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة هي فعل العبد مشفوعاً بعون الله، فعليك الحركة، وعلى الله البركة، رفضاً للاتكالية في الأمور المختارة، وتحريضاً على السعي ثم الاستعانة في كماله وإنتاجه.

كما وأن الاستعانة تعمّ العبادة وسواها، والعام يذكر بعد الخاص تعميماً له ولسواه، فـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي كل ما ترضاه.

ثم العبادة لا تنحصر في مجالات الذكر والصلاة والحج: فإنها تشمل كافة حركات الحياة وسكناتها، فلتكن كلها صلاةً لله وصلات بالله لتصبح الكل عبادة لله.

ولأن العابدين فرادى وجماعات لا يقدرون على إخلاص العبادة لله لضعفهم في أنفسهم ووجاه عرقلات الشياطين، فلا حول عن معصية الله إلّا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلّا بعون الله، فعلينا الاستعانة بالله في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كما في سواه، استعانة تكوينية وتشريعية في: كيف نعبده، هدياً إلى صراط مستقيم في عبادته، وفي تحقيق حق العبادة الخالصة هدياً إلى الصراط إيصالاً إلى المطلوب منه، فلولا الإعانة تشريعية وتكوينية لم تتحقق العبادة اللّائقة الخالصة.

فـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعبادتك «وعلى دفع شرور أعدائك وردّ مكائدهم والمقام على ما أمرتنا به»[1] و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: استزادة

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

من توفيقه وعبادته واستدامة لما أنعم الله عليه ونصره[١] ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أفضل ما طلب به العباد حوائجهم[٢].

ولماذا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دون «بك نستعين»؟ لأن بينهما فارقاً والنص يوحي بتوحيد الأولى دون الثانية، سامحاً للاستعانة بغير الله في الله وإلى الله حين يأذن الله ويرضى، فالمستعان - فقط - هو الله، ثم المستعان به في الله وإلى الله في إعانة هو الله ومن يأذن به الله، حيث الدار دار الأسباب، وإن كان الله قد يقطع الأسباب كأيّة رسالة أو كرامة أو عناية خاصة بمن يحبّ ويرضى.

ففي توحيد الاستعانة بالله منع عن كل استعانة بغير الله، وأمّا التوحيد في استعانته فهو سائد في الاستعانة بما يأذن به الله كما في الاستعانة بالله.

فكما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والعبادة لله، كذلك المستعان هو الله لا سواه، ومهما حمدنا سواه واستعنّا بسواه فلسنا لنعبد سواه إذ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٣].

فنحن ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بهدي الرسول الله في: كيف نعبده ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤].

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ باستغفار الرسول الله في غفرانه كما أمر الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٥].

---

(١) من لا يحضره الفقيه عن العلل عن الرضا عليه السلام.
(٢) مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ٦٤.